المحاضرة السادسة : قصيدة التفعيلة في الجزائر:

لم تكن هناك حركة أدبية واعية تتوافر على الشروط الموضوعية حتى يكون هناك اتجاها واعيا نحو التجديد، وإن كانت هناك بعض تنظيرات رمضان حمود ونصوص مبارك جلواح، والتي يمكن اعتبارها بمثابة الثورة اليتيمة في تاريخ الشعر الجزائري الحديث، حيث لم تستطع تعبيد الطريق للتجديد والتغيير خصوصا أن التجديد لا ينجزه الفرد وحده؛ وإنما يكون عن طريق حركة أو تيار.

والمتتبع للنص الشعري الجزائري يجد التأثر واضحا بالمشارقة؛ فيقول محمد ناصر انه يغلب على بعض الشعراء المتأثرين تأثيرا واضحا بمدرسة أدونيس وأنسي الحاج، ويوسف الخال ...إلخ، ومنهم عمر أزراج وأحمد حمدي...وصنفهم ضمن تيار أسماه (التعقيد)، وينضوي تحت تيار آخر أسماه تيار (التجسيد) أغلبية الشعراء الجزائريين المتأثرين بشعر الرواد أمثال بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور ... ويضيف محمد ناصر في معرض الحديث عن الشعر الحر الجزائري أن هذا التقليد ليس تقليدا أعمي؛ وإنما هو((نابع عن إرادة مجردة لمتابعة التطور الشعري الذي اتخذ له في هذه الفترة شكل الظاهرة في الساحة الأدبية قد يكون لها اثر في نفوس الشعراء الجزائريين، ولكن العامل الأقوى فيما نرجح نبع قبل كل شيء من حاجة نفسية ذاتية دفعت الشعراء الشباب إلى البحث عن قالب جديد يتماشى مع ما يحسون به داخل أعماقهم من إرادة التطوير والتغيير، و قد ارتبط كل ذلك بطبيعة الحياة الجزائرية العامة التي أخذت تشهد تحولا هاما وجذريا بعد أحداث الحرب العالمية الثانية، وكانت الثورة التحريرية النتيجة الحتمية لها".

فمسايرة الثورة دفعت الشاعر أبا القاسم خمار إلى اعتماده هذه النبرة الخطابية التي تجعل القصيدة مفعمة بالحماس والإيقاع السريع يقول في هذا المقطع من قصيدة "منطق الرصاص":

لا تفكر.. لا تفكر
يا لهيب الحرب زمجر.. ثم دمر..
في الذرى السمراء من ارض الجزائر .. لا تفكر..
مزق الاحياء .. أشلاء .. و بعثر
حطم الطغيان .. كسر ..

يعترف الدكتور محمد ناصر لأبي القاسم سعد الله بالريادة و الوعي و الاقتدار. في خوض تجربة القصيدة الحرة أكثر من غيره من الشعراء أمثال الطاهر بوشيشي أبو القاسم خمار أحمد الغوالمي... ؛لأن أغلب قصائدهم أقرب إلى القصيدة العمودية منها إلى القصيدة الحرة، ضف إلى ذلك أن أبا القاسم سعد الله كان أكثر متابعة لحركة الشعر العربي المعاصر واحتكاكه بهم يقول أبو القاسم سعد الله في مقدمة ديوانه

"النصر للجزائر": «كنت أتابع الشعر الجزائري منذ 1947 باحثا عن نفحات جديدة وتشكيلات تواكب العصر الحديث ولكني لم أجد سوى صنم يركع أمامه كل الشعراء بنغم واحد وصلاة واحدة، مع ذلك فقد بدأت أول مرة انظم الشعر بالطريقة التقليدية، أي كنت اعبد ذلك الصنم وأصلي في المحراب نفسه، لكنني كنت شغوفا بالموسيقى الداخلية للقصيدة و الصورة و البناء ...».

وهو بهذا يقر برتابة الشعر التقليدي وجموده، وهو ما جعله يخوض غمار التجديد لدواع ثقافية ونفسية محضة ولعل أول مرة اطلع جمهور القراء الجزائريين على قصيدة الشعر الحر (التفعيلة) كانت يوم 23 مارس 1955؛ حيث طلعت جريدة البصائر عليهم بقصيدة أبي القاسم سعد الله والمعنونة ب "طريقي" وتضمنتها لاحقا ديوانه "ثائر و حب" يقول الشاعر:

يا رفيقي
لا تلمني عن مروقي
فقد اخترت طريقي
و طريقي كالحياة
شائك الأهداف مجهول السمات
عاصف التيار وحشي النضال
صاحب الأناتعربيد الخيال
كا ما فيه جراحات تسيل
و ظلام و شكاوى و وحول
تتراءى كطيوف
من حتوف
في طريقي
يا رفيقي

نظم أبو القاسم سعد الله هذه القصيدة بتفعيلة "فاعلاتن" من بحر الرمل، وهي التي لجأ إليها أغلب من غير في شكل القصيدة؛ حيث حاول الشاعر أن "يتحرر من الشكل الموسيقى القديم كما تحرر من أفكار سابقة، فاعتمد القصيدة على الارتباط النغمي بين الأبيات المتتالية و ارتكزت على نقطة نغمية توجه حركة النفس مع الموسيقى و هي كلمة طريقي لكنها ما زالت حبيسة في قيود القافية المتتالي، وما زالت تخضع لقيود الوزن؛ حيث يوازي فيها بين الأبيات الشعرية".

و على العموم فالشعر الجزائري لم يقدم الأسباب الفنية للتجديد، حتى لا نقول التحديث فبقي يدور في فلك التصنع الفني كاختيار الألفاظ المشحونة ذات الواقع القوي على أذن المتلقي، وارتكزت تجاربهم في معظمها على التجربة المشرقية بخاصة؛ ما كان يأتي من لبنان، وواكبت التطور على الصعيدين الإبداعي و النقدي

الوافد هو الآخر من الغرب هذا مع كان مع أبي القاسم سعد الله الذي فتحت له مجلة الآداب اللبنانية صدرها وغيرها من المجلات العربية ينشر فيها قصائده، و يعرف بالتجربة الشعرية و النقدية في الجزائر مثله كمثل غيره من الأدباء و النقاد الجزائريين.

د. علي معاش